

التعريف بمكانة وموضوع المخطوط محلّ الدراسة

يعتبر مخطوط "زهر الشماريخ في علم التاريخ" لصاحبه أبي راس الناصر المعسكري من أهم مؤلفاته التاريخية لكونه يُعتبر مصدرا للتراث التاريخي الجزائري خصوصا والعربي عموما.

يتناول موضوعه استقصاء بعض أخبار المؤرخين وما صنّفوه، ويصنّف المخطوط ضمن التاريخ العام، حيث يضمّ طائفة هامة من الأخبار منذ بدء الخليقة إلى البعثة النبوية، كما يتضمّن من بين موضوعاته الأخرى عروضاً مهمة عن شمال إفريقية وسكانها الأمازيغيين ومآثرهم، خصوصا قبائل البربر، وزناتة، وعن الترك، وملوك فرنسا، وملوك الأندلس، كما يتناول الحديث عن اليونان وبعض قبائل العرب، كما يتكلم عن الصوفية ويناقش آراء ابن خلدون، ومع كل هذا، يعتبر هذا مخطوطا مفتيا لم يطبع بعد، لازال يحتاج إلى التعريف به.

اعتمد أبو راس الناصر المعسكري في جمع بعض هذه الأخبار على مجموعة هامة من مصادر التراث، ولعلّ تقريب الباي مصطفى بوشلاغم له والذي أنشاء له مكتبة كانت العامل الرئيسي الذي ساعده على جمع هذا الكم الهائل من أخبار المؤلفين ومؤلفاتهم، كما سلك في نهجه لمؤلفه "زهر الشماريخ في علم التاريخ" طريقة الإخباريين والمحدثين القدامى، إلا أنّنا نجد تارة يناقش آراء ابن خلدون، في سياق النقد والردّ، ويصوّب بعض الآراء التاريخية تارة أخرى، ممّا دفع علماء عصره بتلقيبه "بحافظ المغرب الأوسط".

بعد هذا التقديم الموجز لمكانة مخطوط "زهر الشماريخ في علم التاريخ"، يمكن استخلاص الملاحظات التالية :

فمن حيث القيمة التاريخية، من مزايا هذا المخطوط إظهاره عالما من علماء المغرب الأوسط (الجزائر) ظل مغمورا يكتنف حياته الغموض، و من خلال العثور على هذا المخطوط و تحقيقه ستمكن الأجيال اللاحقة من التعرف عليه الاطلاع على آثاره، إذ أنّ المادة التاريخية التي تضمنها المخطوط السالف الذكر، بين دفتيه تعين إلى حد بعيد الدارس والباحث على الكشف عن جوانب مهمة من حياته، ومكانته العلمية، وتوجهه التاريخي والفني، وذوقه الأدبي، ومستواه المعرفي.

إنّ نُسخ المخطوط التي عُثِر عليها متعددة وفريدة من نوعها، وهي نُسخ كتبت بعد عصر المؤلف، ولعلّ هذا ما يؤكده تاريخ الفراغ من التأليف (1271هـ/ 1854م) بالنسبة لنسخة خزانة أبي عبد الله شراك. نسخة بالرغم مما تحويه من الأخطاء لم تراجع بعناية ولم تصحح بالدقّة اللازمة، فهي نسخة قديمة يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر الميلادي، والحال نفسه بالنسبة لنسخة خزانة القصر الملكي (1293هـ).

تظلّ نسخ المخطوط إلى جانب مخطوطات أخرى مثل "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، و"الخبر المعرب"، و"الحلل السندسية"، و"أقوال التأسيس"، كل ما تبقى من أعمال وإنتاج أبي راس الناصر، فقد ضاعت جلاّ أعماله، أو هي في حكم المفقود، فلا يسع الباحث أن يتخطى هذه النسخ اليتيمة إلى غيرها بل يتوجب العمل على تحقيقها وطبعتها.

أما القيمة العلمية للمخطوط من حيث الأسلوب، فقد دوّن أبو راس مخطوطه هذا على منوال كتب القدامى بأسلوب سهل واضح، غاية في الحسن والجمال، والجودة واللطافة والبيان؛ أسلوب أنفذ إلى القلب، وأشدّ استثارة

للاهتمام، وأدعى إلى ابتعاث أنبل الأحاسيس، وأشرف العواطف، وأقوى انبثاقا لينايبع الخيال والإلهام والحدس والوحي، بعيدا عن التعقيد والغموض والتكلف والتصنع المبتذل والضجيج اللغوي.

فهو أسلوب تستدعيه الطبيعة المعرفية والتكوينية، والغاية الدينية، يوازن فيها أبو راس الناصر بين السرد والإخبار والتقرير، وبين العرض والمناقشة والتحليل والتفسير والتعليق، موازنة توحى بامتلاكه الحس النقدي الجيد الذي يرفعه إلى مقام كبار العلماء.

ومن حيث المادة المعرفية، فمخطوط أبي راس الناصر يزخرُ بمادة غنية، جمعت نخبا من المعارف الطريفة المختارة المتنخلة التي تجمع إلى حد بعيد بين سمو المعنى ورقته ولطفه، وبين دقة اللفظ وجزالته وسهولته. مادة متنوعة، ليست من طبيعة

واحدة، ولا من مذهب واحد، ولا من مصر واحد، كما أنّها ليست لجيل واحد، وإنّما هي مادة من ألوان شتى ومذاهب متنوعة، وأمصار مختلفة متباعدة، ولأجيال متباينة متفاوتة من العلماء.

ومن حيث المنهج، يخضع مخطوط أبي راس الناصر المعسكري لمنهج محدّد ينتظم وفقه البناء العام للموضوع، وقد حدّد أبوراس معالمه بدقّة في المقدمة، قائلا: "وذكر الأمم الماضيين الأقدمين إلى بعثة خاتم النبيين، ولا أذكر ما بعده في هذا التأليف المهذب المختار الأعلى طريق الانجرار"، وقد حاول أن يلتزم به على طول التأليف بنسب متفاوتة حسب ما يستدعيه المقام، الشيء الذي جعل من المخطوط وحدة متكاملة، منسجمة مفيدة.

البطاقة التقنية للمخطوط

الوصف الخارجي

اعتُمد في إخراج نص مخطوط "زهر الشماريخ في علم التاريخ" على نسختين هما: النسخة "أ" وتعدّ من نفائس أحباس خزنة الزاوية العدّاوية بتيارت، وهي ملك لوزير الشؤون الدينية والأوقاف الأسبق أبو عبد الله غلام الله، أهداها لفريق البحث عن طريق أبي عبد الله شراك¹. و النسخة "ب" التي توجد منها نسخة أخرى مصوّرة على الميكروفيلم بمكتبة القصر الملكي بالرباط (الخزانة الحسنية) تحت رقم:13923.

ونسخ المخطوط عبارة عن مجلد متوسط من الحجم الصغير، رتّة متقدمة، مصفّرة على الطريقة القديمة، مكتوبة على ورق من القطع الغليظ ومن الحجم المتوسط، مقياسه (12/16)، عدد صفحاته (230)، ضمّت كلّ منها ما بين (22) سطرا، وفي كلّ سطر ما بين (12 و13) كلمة.

الوصف الداخلي

تمكّن فريق البحث من الحصول على نسختين، إحداهما قريبة من عصر المؤلف لمخطوط أبي راس الناصر، كان قد زوّدنا بها الشيخ أبي عبد الله شراك، وهي من توقيع الشيخ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن بغداد ناسخ المخطوط، مكتوبة على الطريقة المعهودة عند المصنّفين القدامى، حيث يقول في آخر ورقة من هذه النسخة: "انتهى

¹ إمام بأحد مساجد وهران.

على يد كاتبه عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن بغداد² بخط مغربي مقروء وواضح، يتوزع اللون الأسود والأصفر والأحمر والأزرق والأخضر بين صفحاتها، فهي نسخة كاملة واضحة تحمل تاريخ الانتهاء من تأليفها.

أما الأخرى فهي نسخة القصر الملكي بالرباط المصنفة تحت رقم:13923، مكتوبة هي الأخرى بخط مغربي مقروء وواضح، يتوزع اللون الأسود والأصفر والأحمر والأزرق والأخضر بين صفحاتها، وهي نسخة كاملة واضحة، تحمل تاريخ الانتهاء من نسخها، حيث يقول ناسخها: "فرغت من النسخة المباركة بحمد الله وحسن عونه، في سادس محرم الحرام يوم الأربعاء وقت الزوال، عام ثالث وتسعون ومائتين وألف، على يد عبید ربه تعالی محمد بن أحمد الصديق الحسني". ساعدت كتب الفهارس والبرامج والإثبات فريق البحث على تحديد نسبة هذا المخطوط لأبي راس الناصر المعسكري، وقد اعتمد في نسبة ذلك لمؤلفه لأبي راس الناصر على:

أ- وجود اسم المخطوط ضمن مخطوطة له نشرها يحي بوعزيز الموسومة بـ "شمس المعاريف في نسبة التواليف" (التأليف).

ب- المقدمة والخاتمة للمخطوط تثبتان توقيع وورود اسم المؤلف، وهو توقيع جار على عادة القدماء، ويدل دلالة واضحة على نسبة النسخة لصاحبها أبي راس.

ج- عرض النسخة على مجموعة من المحكمين في التراث المخطوط المتمرسين بميدان تحقيق النصوص. إن مجمل السمات التي تحملها هذه النسخة، وكذا الأخطاء الكثيرة التي تسربت إليها لا تستدعي الشك في أصالتها. تعتبر نسخة مخطوط "زهر الشماريخ في علم التاريخ" نسخة تامة وقد بلغ عدد صفحاتها 230 صفحة، تستهل متنها على النحو التالي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله. الحمد لله الذي لا يزول على تواريخ الدهور ولا يدول، ولا لمشيئته وإرادته اضمحلال ولا عدول، وعزه دائم، وأحوال ما سواه تحول..."³. كُتبت هذه النسخة بخط مغربي قديم، متوسط الجودة، بقلم غليظ، واسع غير دقيق، سهل القراءة أحيانا، وصعب أحيانا أخرى، وقد أنفق فريق البحث في قراءته وقتا ليس باليسير. تحمل النسخة زخرفة وتزيينا، كما استعمل في كتابتها مداد أسود داكن تارة وباهت تارة أخرى.

أما عناوين المخطوط البارزة فقد كُتبت بخطوط مميزة إما بلون أحمر أو أصفر أو أزرق. يُهمل رسم الهمزة على الألف وهي عادة عند القدامى، ويُخلط أحيانا كثيرة بن الممدود والمقصور، بل قد يُتسّف بكتابة الكلمة مرة ممدودة ومرة مقصورة.

النسخة كلها مشكولة، باستثناء بعض الكلمات وغالبا ما يُعتمد إلى شكل بعض كلماتها إما بالكتابة أو بالوزن. تسربت إليها أخطاء كثيرة إملائية ونحوية والأرجح أنها أخطاء ناتجة إما عن السهو وإما عن النسخ، والراجح أنّ المؤلف والناسخ معًا قاما بعملية تصحيح لكنها كانت سريعة وغير شاملة لكل الجوانب.

العرض الوصفي للمخطوط

جاء العرض الوصفي المركز لأهمّ الأحداث والتطورات السياسية والفكرية والعلمية التي شهدتها عصر الشيخ أبي راس الناصر المعسكري حرصا على وضع القارئ في السياق التاريخي للنصّ من جهة، ورغبة في تلمّس مظاهر التأثير

² مخطوط زهر الشماريخ في علم التاريخ، ورقة 113.

³ زهر الشماريخ في علم التاريخ، ورقة 1.

والتأثر بالنسبة للمؤلف من جهة أخرى، وقد وجد فريق البحث أنّ السمة الغالبة على العصر هي القلاقل والفتن والانقلابات (العهد العثماني)، وأنّ أبا راس شخصية كان لها - رغم ذلك - حضور قوي، لكن التاريخ طواه وتناساه، كما طوى وتناسى الكثير من تراث الأمة، وما يمكن الإشارة إليه هو أنّ فريق البحث اقتصر على إخراج الجزء الأول من المخطوط نظراً لقيّمته العلمية والأدبية.

ومن أهم العناوين التي حواها مخطوط زهر الشماريخ نذكر ما يلي:

- الخبر عن العرب، العاربة
- الخبر عن إبراهيم،
- الخبر عن أولاد يعقوب
- الخبر عن حكام بني إسرائيل
- ولاية طالوت أول ملوك بني إسرائيل
- الخبر عن سليمان
- الخبر عن بختنصر
- الخبر عن دولة الأسباط
- الخبر عن عمارة القدس
- الخبر عن ملك هيرودس
- الخبر عن مبعث عيسى
- الخبر عن الفرس، ودولهم
- الخبر عن دولة اليونان والروم
- الخبر عن ملوك القباصرة،
- الخبر عن ملوك القوط
- الخبر عن ملوك الموصل ونيوى
- الخبر عن ملوك بابل
- الخبر عن ذكر العرب، المستعربة
- الخبر عن ملوك التتابعة
- الخبر عن ملوك الحبشة واليمن
- الخبر عن البربر، وزناتة بشمال إفريقيا
- الخبر عن ملوك الحيرة
- الخبر عن ملوك الغوطة بالشام
- الخبر عن ملوك الترك،
- الخبر عن الديلم
- الخبر عن ملوك افرانسة
- الخبر عن ملوك الأندلس
- الخبر عن السودان

- الخبر عن المؤرخين والحكماء

- نيل الإرب في تفضيل العرب،

- الخبر عن بطون قريش،

- وفيات الأعيان في أبناء الزمان والمكان

ولإبراز مكانة هذه الشخصية حاول فريق البحث جهد الإمكان أن يضع له ترجمة وافية تليق بمكانته وتوفيه حقه، ولهذا الغرض اضطر إلى أن يستثمر أكثر من معلومة أو إشارة وردت في مخطوطة زهر الشمارخ، كما استطاع أن يعثر على بعض مصنفاته وأعماله العلمية والأدبية.

يعتبر "زهر الشمارخ في علم التاريخ" لصاحبه أبي راس الأثر الكامل والمهم الذي حفظه لنا التاريخ من بين جملة أعماله الهامة المحجوبة كلياً إن لم نقل المفقودة، فهو الوثيقة الأساسية الموجودة التي تخلد ذكره، والعمل العلمي المتكامل هو الذي بإمكانه اليوم أن يساعدنا على رسم صورة واضحة له.

يشكل المخطوط محل التحقيق، بالنظر إلى كبر حجمه ووفرة مادته وغناها وتنوعها، مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ المغربي النادرة، ووجهًا بارزًا من وجوه التعامل مع النصوص الابداعية خلال العهد العثماني، فهو تعامل علمي تنوعت أضره، وتعددت علومه ومعارفه خدمة للقرآن الكريم، والسيرة النبوية والسنة الشريفة، اللغة العربية، الحياة التاريخية والأدبية والفكرية عموماً.

ومن بين المواضيع التي يعالجها المخطوط مسألة نسب البربر، و البحث في تاريخ سكان شمال إفريقيا، حيث يرجح أبو راس الناصر المعسكري أصل البربر إلى الانتماء العربي وبالتحديد من جزيرة العرب، وذلك في قوله: "إعلم أنّ نسب البربر في القديم قيل أولاد نقشان بن إبراهيم، الخليل عليه الصلاة والسلام، والظاهر أنّ هذه اللغة إنّما تعلق بهم عند تبديل الألسنة من أنّ الناس باتوا على لغة واحدة ببابل فأصبحوا وكل أحد على لغة"⁴، ويسترسل أبو راس الناصر في حديثه عن البربر قائلاً: "وقال أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، بعد ذكر نحو ما مرّ لنا والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره أنّ البربر من ولد كنعان بن حام بن نوح وأنّ جدّهم مازيغ"⁵.

ويذكر ابن خلدون، عن أصل البربر، قائلاً: "البربر قبائل شتى من جُمَيْرٍ ومُضَرٍ ولقيط وعمالقة كنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم إفريقيش⁶ بالبربر لكثرة كلامهم..."، ويختلف الكلبي مع بعض كلام ابن خلدون فيقول: "إنّ كتامة⁷ وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنّما هما من الشعوب اليمانية تركهما إفريقيش بن صيفي بأفريقية مع من نزل بها من حامية..."

⁴ المعسكري، أبو راس الناصر، مخطوط زهر الشمارخ في علم التاريخ، مكتبة الدكتور أبو عبد الله غلام الله، لوحة رقم 69.

⁵ المعسكري، أبو راس الناصر، زهر الشمارخ في علم التاريخ، لوحة رقم 71.

⁶ إفريقيش بن صيفي: أو أفريقيش بن ابرهة الرائش الذي قاد حملة على بلاد البربر، وابتنى مدينة إفريقية، ويذهب آخرون إلى إن هذا الاسم اشتق من إفريق وهو ابن إبراهيم، عليه السلام من زوجته الثانية قطورا (قنطوراء) أو من فارق بن مصرام. ويرجع ابن خلدون، هذا اللفظ إلى إفريقيش بن قيس، بن صيفي أحد ملوك اليمن. ويرى ابن أبي دينا عن المقرئ أن إفريقيش بن ذي القرنين غزا المغرب ثم ابتنى هناك مدينة سماها إفريقية (دائرة المعارف الإسلامية. المصدر السابق، ص.337).

⁷ كتامة وصنهاجة: قال ابن خلدون، صنهاجة قبيلة من أوفرقبائل البربر، (وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد (أواخر القرن الثامن للهجرة) لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى لقد زعم الكثير من الناس أنهم الثلث أول البربر وكان لهم في الردة ذكرو في الخروج على الأمراء شأن. وأما ذكر نسبهم فأنهم من ولد صنهاج وهو صنناك بالصاد المشمة بالنزاي والكاف القريبة، إلا ان العرب، عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج. وهو عند النسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بروذكر بن الكلبي والطبري أنهم وكتامة جميعاً من حمير... وأما

كما نجد أبا راس يستطرد في كلامه عن البربر، مستدلاً بقول ابن خلدون، قائلاً فيهم: "لا خلاف بين النسابة العرب، من أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة... والمشهور أنهم من اليمانية" وفي توضيحه لكلام الكلبي و ابن خلدون هو إنهم عندما قسموا البربر إلى عرب وغير عرب ليس المعنى أنهم قد قالوا بعدم عروبة البربر وإنما فصلوا بين القبائل العربية التي كانت في الجزيرة العربية من حيث اللغة العربية التي كانوا يلهون بها من ناحية وبين تأثير مناطق سكناهم على صفاتهم.

كما نجد أبا راس الناصر يفرد فصلاً كاملاً عن أهم الكاملين من هؤلاء البربر، (الأمازيغ) ويقصد بهم أهم علماء البربر وأهم مجالات اختصاصاتهم التي نبغوا فيها أمثال:

- ابن النحوي صاحب المنفرجة
- ابن أبي جمعة الوهراني
- إبراهيم، التازي
- الافريقي صاحب العقيدة
- علماء الدين البجائيين

وخلاصة القول أنّ مخطوط "زهر الشماريخ في علم التاريخ " لأبي راس الناصر المعسكري مادة تعريفية غنية بمعلومات وحوادث تاريخية مهمة، إلى جانب مناقشتها مناقشة تراثية تتفق والفكر المنطقي المتعارف عند الباحث الأكاديمي.

المحققون من نسابة البربر فيقولون هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن قيمتا بن سدور بن مولان بن مصلين بن يبرين بن مكسيلا بن دقيوس بن لحال بن شرو بن مصرايم بن حام ويزعمون أن جزول واللمط وهسكور اخوة صنهاج وان أم الأربعة بصكي وبها يعرفون وهي بنت زحيك بم مادغس ويقال لها العرجاء فهذه القبائل الأربع من قبائل اخوة لام...وذكر آخرون من مؤرخون آخرون أن بطونهم تنتهي سبعين بطناً...وكان أعظم قبائل صنهاجة بلكانة وفيهم كان الملك الأول والله اعلم. (دائرة المعارف. بطرس البستاني، ج. 11، بيروت- لبنان، طبعة دار المعرفة، ص. 45).